

الفضل السابع

أى نوع من الحب تبحثين عنه ؟

كل إنسان يبحث عن الحب ؛ فإن الحياة من المهد إلى اللحد طريق طويل واحد للبحث عن الحب والحنان و(التفانى) والإخلاص والتفهم ، ونحن كأطفال صغار نحاول غريزيا الوصول إلى حب أمهاتنا ، وكأطفال أكبر سنًا نتحول بحثاً عنه إلى آبائنا وأخواتنا وأصدقائنا ، وكمراهقين نبحث عن الحب والمصاحبة عند أفراد من الجنس نفسه ، وهذه هى مرحلة الجنسية المثلية الطبيعية فى نمو الإنسان . وكراشدين نبحث عن الحب عند الجنس الآخر . وبطبيعة الحال يبقى هناك أفراد قليلون لا يستطيعون التعبير عن حبهم إلا لأشياء مادية جامدة أو لا يستطيعون التعبير عنه لأى شيء أو لأى أحد ، ولكن هؤلاء قليلو العدد ولا حاجة بنا إلى تناولهم هنا .

ومع ذلك فإنه برغم أن كل إنسان يبحث عن الحب فإنه لما يدعو إلى العجب أن قلة قليلة منهم فقط يعرفون تماماً ما يبحثون عنه . وأنا فى عملى أقابل يوماً بعد يوم نساء يجربننى كيف أنهن قضين حياتهن بحثاً عن الحب دون جدوى . وحين كنت أسأل الواحدة منهن : «أى نوع من الحب تودين ؟» كانت تنظر إلى بدهشة وتقول : «ولكن كم نوعاً من الحب هناك ؟ إنه لا يوجد إلا نوع واحد منه فقط .»

وهذا فهم خاطئ ، ولكنه ذائع جداً ، فإن قليلين من الرجال والنساء من يدركون أن هناك أنواعاً مختلفة من الحب . أو بعبارة أخرى هناك اتجاهات مختلفة من الحب . ما الاتجاه فى الحب ؟ إنه ما يتوقع الإنسان الحصول عليه من علاقة وثيقة بينه وبين إنسان آخر .

وقد تعرضين بالقول بأن هذا تعريف ضيق ، وأنه يقصر الحب على أسامى أنانى وحسب . وقد تشيرين وبحق - إلى أن الحب كثيراً ما يكون غير أنانى وأن المرأة أو الرجل الذى يجب

سيضحى بالكثير من أجله ، وأن الإنسان لا يسعى دائماً إلى الحصول على شيء ما من هذه العلاقة ، وأنه في معظم الأحيان يكون أكثر شغفاً بالإعطاء . وهذا صحيح تماماً ؛ فإن كثيراً من الناس يعطون أكثر مما يأخذون من علاقة الحب .

ومع ذلك يجب أن نكون واقعيين بخصوص هذا الأمر ، شأننا مع أي أمر آخر ؛ إذ ليس في وسعنا أن نخدع أنفسنا ، ومن ثم ينبغي أن ندرك أن المرء حتى إذا قام بأكبر تضحية إثارية ممكنة فإنه في الواقع يحصل على شيء ما مقابل تضحيته ، وهذا الشيء قدر كبير من رضاء الذات . وعلى الرغم من أنه في ذلك إما أن يكون قد تخلّى عن ثروة مادية أو جرد نفسه روحياً فإنه في الوقت نفسه يجبر ذلك الشعور العميق اللذيذ بأن يقوم بدور المعطي أو المانح . ولكن الطريقة المثلى لكى تلقى القبول من إنسان آخر = ليست بأن تسدى إليه معروفاً ، ولكن بأن تطلب منه أن يعمل لك ذلك . وقد يبدو هذا القول كأنه يمثل وجهة نظر ساخرة . ولربما يكون كذلك ، ولكنه أيضاً يمثل اتجاهاً أميناً وراقياً ؛ فإنه على الرغم من أن الحب نفسه أعظم عاطفة «عاطفية» عرفها الإنسان - فإن دراسة الحب يجب أن تكون متجردة من العاطفية . فإذا ألقينا عليه نظرة موضوعية محضة أمكننا أن نستخلص أنه ما لم يشعر الإنسان بأنه يحصل على شيء ما من هذه العلاقة فإنه لن يستمر فيها . وليس من المحتم أن يكون هذا الشيء مادياً أو حتى تمكن رؤيته بسهولة أو يمكن وصفه في كلمات ، فإنه في كثير من الأحيان يكون من الغموض بحيث لا يعرف الإنسان نفسه لم هو منجذب إلى الشخص الآخر ؟ وأنت في أرجح الرأي قد شهدت صديقة لك قد تزوجت رجلاً يبدو أنه غير ملائم لها كلية ، وعلقت على ذلك بقولك : « ماذا أعجبا فيه ؟ » .

وفي هذا المقام فإني أذكر امرأة صغيرة الحجم دميعة بها شبه من الفأر وتخلو من أي جمال أو إشراق أو هذا على الأقل رأيي فيها . وفي ذات يوم تزوجت رجلاً جذاباً بارعاً كان على رأس فريق كرة القدم في بلده ، ثم أحرز بعد ذلك نجاحاً كبيراً كسمسار في بورصة الأوراق المالية . وقد انفقت صديقاتها جميعاً على أن أدبث هيلان ستميش حياة العانس ؛ ولذلك فقد حاولت بلباقة أن أعرف لم وقع عليها اختيار زوجها من وسط عدد كبير من النساء الجذابات اللاتي كن يتمنين حمل اسمه ؟ وعلى قدر ما استطعت أن أرسل له فإن هنرى نفسه لم تكن لديه فكرة واضحة عن السبب في زواجه منها ، ولكن زواجهما كان ناجحاً إلى أبعد الحدود من جميع

الوجوه . ويبدو أنه حصل على شيء من أوديت لم يستطع أحد حتى هو نفسه ، أن يعرف ما هو ؟

وإني أكرر الضغط على هذه النقطة وأؤكد لها ولو على حساب تكرارها ، وذلك لكي أقول بوضوح : إنك إذا شئت النجاح في الحب الحقيقي فينبغي أن تحددى أولاً ما الذى تريدته من هذا الحب ؟ وما الذى تتوقعته منه ؟ وقد يبدو هذا جافاً وقاسياً ولكن ما لم تعرف تماماً ما الذى أنت بصدده فإنك ستظلمين تتخططين بدون هدف في الظلام طوال حياتك دون أن تجدى الحب ؟ وستظلمين تشعرين دائماً بأنك خدعت وأحبطت ، وستبقين فريدة أبداً . وليس هناك عذر لآى إنسان لا يفهم حقائق الحياة ، أما الذى لا يفهم حقائق الحب فقدره أقل . وهناك خمسة أنواع أو اتجاهات أساساً للحب :

- ١ - الرومانسى .
- ٢ - الجسدى .
- ٣ - الإيجابى
- ٤ - الروحى .
- ٥ - الواقعى .

وبينما كل نوع من هذه الأنواع منفصل ومتميز عن غيره فإن منها ما يتداخل هو وغيره إلى حد ما ، وهناك من السمات ما هو مشترك بينها جميعاً .
فلنفحص كلاً من هذه الإتجاهات :

١ - الحب الرومانسى :

هو الإتجاه الذى نقرؤه في كتب القصص والحكايات الخيالية ، وقد مجدته وموهته وقدمته في صورة ساحرة أفلام هوليود والقصص الخيالية والتليفزيون والراديو ، مع أنه يكاد يكون مقطوع الصلة بالحياة الواقعية ، وتبعاً للإتجاه المثالى الرومانسى في الحب والزواج يتقابل رجل وامرأة (عادة تحت ظروف غير متوقعة إطلافاً) فيقعان في الحب من أول نظرة ، وبعد أن يتغلبا على عدد معين من العقبات يتزوجان ويعيشان في سعادة بعد ذلك . وكل واحد من الطرفين «رفيق الروح» للطرف الآخر ، والشخص الوحيد الذى ادخره القدر له . وكل منهما يدرك

هذه الحقيقة مباشرة ، وبصورة غريزية منذ لحظة أن يقع نظره على الآخر ، فليست هناك عملية تعارف بالتدرج تنمو بينها ، وليس هناك حب يزدهر ، وليست هناك فرصة لكي يعرفا : هل هما « رقيقاً الروح » فعلاً؟ إنه حب فوري غامر ، ولا يمكن مقاومته إطلاقاً ، ولكن هوليود في بعض الأحيان قد تقلب هذه المعادلة رأساً على عقب ، فيبدأ الفن والفتاة لكره بعضهما بعضاً ببشاعة ، ولكنها في النهاية يتحابان ، وهنا أيضاً المعادلة الأساس المكونة للحب واحدة لا تتغير فيها ، إنها عاطفة فورية ، ولكن بدلاً من الحب من أول نظرة فإنها الكراهية من أول نظرة ، بيد أن النتيجة النهائية في كلتا الحالتين واحدة .

وسوف نقولين : إني أبالغ ، ولكني إذا كنت كذلك فلست أبالغ كثيراً ، إنك سوف تدهشين لو عرفت كم من الزيجات رأيتها تتحطم وذلك لأن الطرفين نظرا إلى الحب على أنه مسار مشتعل يصدم فجأة رقبتيك ويلقي بك رأساً على عقب . وحين يكشفان بعد انتهاء النشوة والإثارة الأوليين ضرورة العمل والعمل الشاق من أجل الحب فإنها يصابان بخيبة الأمل وعدم الرضا وبالتنقزز !

وليس هذا الاتجاه في الحب مقصوداً على المراهقين ؛ فإن مفهوم الحب هذا ، وأأسفاه ، شائع بين كثير من الرجال والنساء الذين يفترض فيهم النضج ، وسوف تدهشين إذا عرفت أن كثيراً من الناس في الأربعينيات والخمسينيات يساوون الحب بالنشوة والهيام .

وعلى الرغم من شيوع هذا النوع من الرومانسية في هذه الأيام وفي هذا البلد أكثر من أى مكان آخر في العالم - فالحقيقة أن هذا أمر قائم من زمن طويل . والمصدر المحتمل لذلك هو الأسطورة القديمة التي تقول : إنه قبل أن يولد الطفل يقسم الله كل نفس بشرية إلى شطرين ذكر وأنثى ، وإن هذين الشطرين يظلان على الدوام بعد ذلك يبحث كل منهما عن الآخر ليتحدا معاً وليكونا باتحادهما كلاً كاملاً مرة أخرى . ومن هنا الرغبة في العثور على « رقيق الروح » المثالي الذي سيكمل باتحاده الروح الأصلية . فإذا كان الإنسان محظوظاً وعثر على نصفه الآخر فستتاح له فرصة الحب الخالد ، لأن الاتحاد الكامل وفقاً لهذه النظرية سيدوم لا في أثناء هذه الحياة الفانية وحسب ، ولكن سيستمر في الحياة الأبدية أيضاً .

وليس هناك من ينكر أن هذا مثل أعلى جميل ، ولكنه ككثير غيره من الأشياء الجميلة في هذه الحياة التي نعيشها غير سليم وخطر . وهو غير سليم وخطر لأنه بغاية الدقة جميل جداً ، فهو

يصور الحقيقة بصورة مثالية وقد يغير منها ، ويخلق صورة زائفة مضللة . وفي كثير من الأحيان قد يقع الرجل أو المرأة - وهذا يحدث للنساء أكثر منه للرجال - في الحب ، ويرسم حبيبه في أشرق لون وأبهاء بغض النظر عن مطابقة ذلك وعدم مطابقتها للواقع .

وبطبيعة الحال لن يكون في وسع أى رجل أو امرأة ، وقد وضع في هذا الإطار المثالي - أن يرتفع إلى مستوى هذا التوقع أمداً طويلاً . وهذا هو الخطأ القتال والمضلل للاتجاه الرومانسى للحب ، لأنه حتى صاحب هذه الصورة المثالية إذا كان رجلاً على فرض إمكان وجوده - له لحظاته الخشنة المملة ، وليست هناك أية حكمة في التفاضى عن هذه الحقيقة ، وإذا كانت امرأة فيجوز أن تكون أنانية ، ويصعب التعامل معها في بعض الأحيان ، وليست هناك أية حكمة في التفاضى عن هذه الحقيقة كذلك .

ولسوء الطالع فإن كثيراً من الأجيال شبوا وقد أثرت فيهم قصص الأفلام والمسرحيات والراديو ، حتى أصبحوا يعتقدون أنه مجرد أن يلقى فتى فتاة فإن جميع متاعبها تلاشى . ونحن كثيراً ما نجد من الراشدين الأمريكيين رجالاً ونساء من هم غير معدين إطلاقاً للحب والزواج ، ومن هم غير مؤهلين وغير راغبين في تحمل الواقع اليومي والمسئوليات التي لا بد أن تسير جنباً إلى جنب مع مباحج الخبرات العاطفية العميقة .

ودعني أسارع لأضيف أنه لا ينبغي استبعاد الاتجاه الرومانسى كلية ، فأى شيء يحمل الجمال والرقرة والبهجة والشاعرية لأية علاقة إنسانية أمر جميل وطيب ، وفي الحقيقة فإنه ما لم يوجد قدر معين من الرومانسية فإن علاقة الحب العادية سرعان ما تتحول إلى مجرد أداء لوظيفة بدنية آلية . والواقع أن الإنسان بحاجة دائماً إلى قدر من الفتنة والتعلق بالمثل العليا ، بل إنه قد لا يؤدي أحياناً وضع هالة حول من نحبين ، ولكن لتحذرى أن تتزلق هذه الهالة لتلتفت حول عنقه ، وتتحول إلى أنشطة تختق الحب !

وتمثل التجربة التي مر بها ألبرت جراى ، وهو صديق لى - مدى خطورة الاتجاه الرومانسى للحب ، ومدى ما يمكن أن يؤدي إليه من تحطيم للذات : فقد كان ألبرت فتاناً ناجحاً في أوائل الأربعينيات من عمره ، ولما كان عزباً فقد وقع في حب فتاة في السابعة والعشرين كانت تدرس الأصوات . وعلى الرغم من الخمسة عشر عاماً التي كانت تفصل بينهما فقد عوض هذا الفارق وأكثر - ما كان بينهما من إهتمامات كثيرة مشتركة : فقد كان كلاهما يحب الموسيقى

والأدب والمسرح والفنون . وكان الاثنان متعلمين ومنتقنين وناضجين ومتزنين ومفكرين . وكان ألبرت يبدو شاباً في مظهره ، ويمكن بسهولة أن يظن أنه في أوائل الثلاثينيات من عمره . ولما كان رجلاً عاقلاً وحساساً فقد رقص استغلال هذه الحقيقة ، وفي بدء علاقته مع هيلين أطلعها على عمره الحقيقي . ولم يحدث هذا أى فرق لأنه كان جسيماً وعقلياً وانفعالياً في مثل حيوية وبقظة رجل الثلاثين ، مضافاً إلى ذلك خلفية غنية متعددة الألوان حافلة بالتجارب والرحلات والتعليم .

واستجابت هيلين لحبه بجرارة ؛ فقد كانت مفتونة به ؛ إذ إنها لم تكن قد قابلت رجلاً مثله في فيض حيويته وشدة مراسه وجاذبيته ونجاحه في مهته ، ثم في الوقت نفسه في عطفه وتقديره وتفهمه وتجنبه المطالبة بشيء . ومن ثم فقد شعرت بأن وجودها معه يشبعها تماماً ويريحها ، وأنه يجعلها تشعر « بسلام مع نفسها ومع العالم » . وعلى الرغم من فارق السن بينها فقد وجدتة جذاباً جسيماً .

ولكن هيلين كانت رومانسية الانجاء ، فكانت فكرتها عن الحب أنه الأميرة الصغيرة الجميلة التي يحملها الأمير الصغير الوسيم ، وعلى الرغم من تعليمها ونضجها الظاهر فإنها لم تستطع فهم جاذبية ألبرت ، بل لقد سببت لها الحيرة والقلق ، ومنذ البداية كانت لا تفتأ تقول له : إنها لا تستطيع فهمها ، وكان هو يجب طالباً منها ألا تحاول وأن تقنع بقبول العطاء الذي منحها الله إياه دون سؤال .

هذا إلى أن هيلين كانت من النوع الذى لا يدع أمراً بغير تحليل ، فلم يكن في وسعها أن تحب دون أن تعرف لم تحب ؟ وخاصة بالنسبة لرجل يكبرها بكثير في السن ، وكان تفكيرها المنطقي يقول : إنه لا ينبغي لها أن تحبه . ومن السهل التكهن بالنتيجة ، فإنه لا يمكن أى علاقة أن تحيا مع هذا التحليل الجاف غير المكثرت لشيء ! وفي الحقيقة فإن المسألة الرئيسة لم تكن هي عمر ألبرت وإنما كانت عجز أى رجل صغيراً كان أو كبيراً عن أن يحقق حلم هيلين ، الأمير الخيالي ، وإلى أن تتعلم كيف تحيا وتحب في عالم الواقع ، ولا تحطم سعادتها الشخصية فإن هيلين مقضى عليها بحياة وحدة خالية من الحب .

ودعني أكرر مع ذلك أنى لا أشعر بأنه يجب استبعاد الرومانسية استبعاداً كاملاً ، على العكس ، فإني أرى أنه يمكن أن يكون لها تأثير صحي في الحب والزواج ، بما تؤدي إليه من

استكمال للتواخي الجسدية للجنس : أى أنها يمكن أن تكون ذات قيمة كنوع من « التيبيل » لعلاقة الحب وإعطائها نكهة محببة . ولكنها كأى نوع آخر من التوايل يجب أن تستعمل بقاية الحذر وبقلة ومع التضمه والضبط .

٢- الحب الجسدى :

هذا النوع من الحب هو القطب المقابل للحب الرومانسى ، ويقع عادة عند القطب المضاد لرغبة معظم النساء ، وهو نوع الحب الغالب عند الرجال ، فإن الرجال لا يهتمون عادة بالقيم الروحية للحب ، واهتمامهم أساساً اهتمامات جسدية ، ومع ذلك فالمرأة العاقلة التى تعترم مواجهة الحياة مواجهة واقعية ستقبل هذه الحقيقة وتتكيف هى وهذه الحقيقة والواقع أن هناك سبباً بيولوجياً سديداً لهذا الاتجاه من ناحية الكثير من الرجال ، فإن الرجل نفسياً وجسدياً على حد سواء إنما هو بصفة عامة فى الجانب المعتدى الذى يقوم باللاحقة ، وهو الذى يبذل الجهد اللازم لزراع البذرة التى تستقبلها المرأة وتغذيها ، فهو دائماً وخلال علاقتها كلها صاحب الدور الإيجابي ، والمرأة صاحبة الدور السلبي ، وقد تكون هناك بعض النساء اللواتى يملن إلى عكس هذه الأدوار ليصبحن هن الصائدات . ولكن هؤلاء يصيبن الحزن عادة لأن الرجال يرفضون أن يلاحقوا وهم يشعرون بالتمس والإحباط إذا جرموا لذة المطاردة والتعقب .

وكثير من النساء يجدن أن الناحية الجسدية للحب كرهية إلى درجة يؤثرن معها علم الزواج . وكما قالت مرجريت ميد العاملة الإثنوبولوجية الشهيرة : « لقد تدرينا بمجتمعنا على أن تبقى أجسادنا بعيدة عن أذهاننا ! » . ولكن هذا النوع من التفكير المتحشم ينطوى على الحفظ مثلاً هو بعيد عن الواقع . بل لقد يكون فى كثير من جوانبه أكثر إيذاء من الرومانسية المسرقة ، والواقع أنه ليس هناك شىء أخلاقى أو غير أخلاقى ، سيئ أو حسن ، فيما يتعلق بالجنس ، فإنه فى ذاته ليس إلا وظيفة طبيعية أخرى لجسم الإنسان ، ألسنا نصف إنساناً بالسخف لأنه امتدح أو ذم تناول الطعام أو البقول بوصفها أموراً أخلاقية أو غير أخلاقية . وفى هذا المعنى يقول الدكتور سيرجيون إنجلش أستاذ الطب النفسى المعروف بجامعة ثميل : « إن الدافع إلى التعبير الجنسي ليس فى ذاته أخلاقياً أو غير أخلاقى ، أما كيف يتصرف الفرد فى هذا الدافع إلى

التعبير الجنسي فهو الذى يجوز أن يكون أخلاقياً أو غير أخلاقى ، وإنه لتقع على الكبار المسئولين تبعه تعلم ذلك للصغار» .

وكثيرات من النساء ، وخاصة النساء الأمريكيات ، قد تربين على الاعتقاد بأن اللقاء الجنسي «شراً بدمه» ، يجب عليهن أن يحتلمنه فى سبيل النهوض بواجباتهن الزوجية ولإنجاب الأطفال . ولكن على هؤلاء النساء أن يتوقفن قليلاً لإلقاء نظرة على الصورة الفسيولوجية . فجرد الاقتراب من امرأة جذابة له تأثير جسدى مباشر على الرجل السوى لأنه يوقظ رغباته الجنسية وينبه أعضائه التناسلية .

ويجب على المرأة أن تدرك أن هذه العملية غريزية وآلية ، فحين يرى الرجل امرأة تعجبه تحدث استجابة جسمية فورية ، وهذا دافع طبيعى تماماً ، ويحتاج إلى التعبير عنه وإشباعه كحاجته إلى الطعام أو النوم أو الإخراج . وكما أنه لا يجوز أن يلام إنسان لأن له رغبة قاهرة للطعام والنوم فليس هناك ما يدعو المرأة إلى أن تعد الرجل «وحشاً» لمجرد رغبته فى اللقاء الجنسي معها . ومع ذلك فكم من مريضاتى كن يحضرن إلى صارخات : «إن زوجى وحش ، فى الدقيقة التى يرانى يرغب فى الإسراع لى إلى الفراش» .

وإجابتي التى لا تتغير على هذه الشكوى هى : «يجب أن تعدى هذا إطراء لك يدفع البهجة إلى نفسك . وإذا شئت أن تكونى سعيدة فلتراعى ألا يفقد شعوره هذا نحوك» .

ويجب أن تعلم كل امرأة أن التواحي الجسدية للحب جزء هام ومتكامل للحب ، ومن ثم فإنها لا يمكن أن تحذف أو يستهان بها أو تعالج بعجلة أو بغير اكترات . وفى ذلك قال الدكتور ستوكس : «إن الدافع السلم الوحيد هو أن تكون مرتبطاً بحب غامر وعلى أساس جنسى صريح محوره الرغبة الجنسية . ولاشك أن الزواج الناجح يحتاج إلى أكثر من ذلك ، ولكن هذا ينبغى أن يكون هو أساسه الراسخ لأنه هو الذى يمنح الإشباع الذى يجعل الزواج طريقاً سعيداً للحياة ، ومنه تنبع دوافع الشعور الطيب الذى يتغلب على معظم المشاكل الزوجية . . . وجميع خبرات الحياة التى تفرق الجنس بالشعور بالحجل والنقص لها تأثير سببى على الاستمتاع بالجنس فى الزواج» .

ومن ناحية أخرى يجب على الرجال أن يدركوا أن المرأة يجب أن تعد عموماً للقاء الجنسي ، فيجب أن تلاطف وتعاقد وتقبل وتدفع تدريجياً حتى تصل إلى الذروة . فالمرأة أبطأ

من الرجل في الوصول إلى النشوة الجنسية ، ومن ثم يجب على الرجل أن يتيح الوقت الكافي لتصاعد الإثارة تصاعداً متراً بدلاً من الاندفاع المفاجئ إلى نهاية لا إشباع فيها وهذا إذا كان يرغب هو نفسه في الحصول على الإشباع الكامل ، وفي الحالات التي يحدث فيها ذلك ، وهي الأغلبية ، فعلى الزوجة أن تعلم زوجها وتجعله يفهم أنه من مصلحتها المشتركة أن يكون صبوراً ولطيفاً . ويجب أن تساعد على أن يرعى أنه ينبغي التودد للمرأة في كل مرة لقاء جنسي ، حتى لو كانا متزوجين منذ سنين طويلة ، وألا يقتصر ذلك على الدقائق القليلة التي تسبق العمالية نفسها ، بل كلما وجدنا معاً على انفراد ، فما ينبغي لأى رجل أن يأخذ زوجته كأمر مسلم به إذا شاء أن يكون سعيداً في علاقته معها . والمرأة الذكية الماهرة ستجعل الرجل يرى أنه حتى من وجهة نظره هو فإنه سيكون أحسن حالاً بإشباعها وإشباع نفسه معاً .

وينبغي على المرأة يقيناً ، في هذا الأمر كما في كل شيء آخر - أن تستخدم ما لديها من صفات التبصر واللباقة والحكمة والتمييز : فيجب ألا تصر على أن يقضى زوجها أربعاً وعشرين ساعة من كل يوم ، وسبعة أيام من كل أسبوع يمارس الحب معها . ولا تتوقع منه أن يكلمها تليفونياً عشرات المرات في اليوم أو أن تكلمه هي في مكتبه أو محل عمله مجرد أن تقول له : «أنا أحبك» . كما ينبغي ألا تتوقع منه أن يحضر لها هدية كل يوم . فإن كثيرات من النساء يتقن إلى التعبيرات السطحية عن حب الرجل . متناسيات أنه إذا كان يكرس نفسه لها ويعمل لإعلاقتها فإنه يكون بذلك قد منحها أعظم مظهر لحيته لأن « العمل حب مرئي » .

وهنا ، كما في كل نشاط آخر في الحياة - لا بد من اثنين لإنجاز صفقة . ففي وسع الاثنين تحقيق علاقة ناجحة يقوم فيها الجانب الجسمي بالدور الأكبر ، بشرط ألا ينسى الزوج والزوجة أبداً أن حياتهما معاً شركة ، وأن لكل منهما نصيباً في عائلتهما من الإشباع والمسرّة . ويجب على الرجل أن يتذكر أن ملاطفات الحب يؤديها بمهارة والكلمات البسيطة الجميلة يهمس بها في أذن المرأة يمكن أن تحقق ما لا تحققه المجوهرات أو النقود أو الأشياء المادية الأخرى . كما أن المرأة من جانبها يجب أن تعلم فن الحب وكيف تستخدم مفاتيحها إلى أقصى درجة ممكنة ؟

٣ - الحب الإيجابي :

يؤيد هذا الاتجاه بعض الجماعات الدينية والمصلحون والمتحشمون وجميع الذين تربوا على

أن الجنس شيء كرهه . ووفقاً لتفكيرهم فليس للدافع الجنسي من غرض إلا الإنجاب ، وهؤلاء الذين يعتقدون هذه الفكرة يرفضون قبول اللقاء الجنسي لأى غرض آخر .

وأى إنسان ذكى مترن لن يتعذر عليه أن يرى ما فى هذا الاتجاه من انحراف لاشك فيه ، وهو اتجاه غير صحى مثلما هو غير واقعى ، بل هو أكثر تحطيماً للسعادة الإنسانية من أى من الاتجاهين الرومانسى أو الجسدى للحب ، لأنه يففل أن يضع فى اعتباره حقيقة هامة هى أن الغالبية العظمى من الناس الأسوياء يمارسون الجنس للترفيه ، كما يمارسونه للإنجاب على حد سواء . وفى حالات الزواج الملكى كما فى حالات ما يسمى زواج المصاحبة يكون الغرض الوحيد إنجاب وريث لا تحقيق السعادة . ولكن إنجاب الأطفال ، بالرغم من أهميته القصوى للأفراد والمجتمع ، ليس عند معظم الرجال والنساء الهدف الوحيد من الزواج ؛ إذ أن سعادتهم الشخصية لها الأهمية نفسها . وفضلاً عن ذلك فإنه إذا اقتصر الزوجان فى اللقاء الجنسي على الإنجاب فقط استمررا فى الاتصال الجنسي حتى تحمل الزوجة ، ثم توقفا عنه بعد ذلك حتى يولد الطفل ، وواضح أن هذا أمر مستحيل ، فإن الغريزة الجنسية من القوة وعمق التأصل بحيث يتعذر تحديدها على هذا النحو . إنها غريزة طبيعية كالطعام والنوم ، كما أنها مثلها قوة وحيوية ، وليس فى الوسع ، كما لا ينبغي ، إنكارها ، وإذا أنكرت أو كبتت كما يقول الأطباء النفسون^(١) ، كان من المحتم أن تنتج عن ذلك متاعب وآلام شديدة .

والإنسان محكوم بغريزتين أوليين : بقاء الذات وتوالد الذات ، والأولى تتحقق حين تشبع حاجته للطعام والماء والمأوى والنوم والأخرى تتحقق بإشباع حاجته للتزاوج وللحب . ولكن هذه الحاجة للتزاوج وللحب التى تسمى الدافع الجنسي تخدم وظيفة مزدوجة من حيث إنها تزود الإنسان بكل من الترفيه والإنجاب معاً .

أما الجانب الإيجابى فى الغريزة الجنسية فإننا نشترك فيه وجميع المخلوقات الحية ، ولكن الرغبة فى النشاط الجنسي كوسيلة لتحقيق اللذة والسرور مقصورة على الإنسان وحده . وإن كان الجانبان لازمين لسعادته ورفاهيته ، فهما مؤشرا عقرب ساعة الحياة ، إذا انتزع أحدهما أضحت لا قيمة لها .

(١) الكبت Repression عملية لا شعورية يستبعد بها الشيء غير المرغوب فيه من الشعور فلا يدرك صاحبه بوجوده . واستعمال مصطلح الكبت فى هذا المقام غير دقيق ، وأرجح الظن أن المألوفة قصدت معنى الضبط أو الكظم . وتستخدم كلمة الكبت لمستخدملاً غير صحيح على نطاق واسع فى الحديث العادى (المشرف)

وأولئك الذين يحددون الغريزة الجنسية لغرض الإنجاب فقط يضعون الإنسان فعلاً على المستوى نفسه كالحبوان الذى لا يتزاوج إلا حين تكون الأنثى فى الوقت الملائم للحمل . وأى مفهوم للحب ينكر القيم الروحية والجمالية والانفعالية الغنية التى ينطوى عليها الدافع الجنى السوى إنما هو زائف ومحطم لخير ما فى الإنسان كله ، وبينما يشترك الإنسان وجميع الأنواع الأخرى فى الدوافع الجسمية نفسها فإنه لا يزال يمتلك القدرة على الاختيار الذهنى المتبصر للرفيق الذى يؤثره . وقد لا تدخل هذه القدرة فى كل اختيار يجريه ، إذ أن الرجل تحت بعض الظروف فى بعض الحالات قد يقبل أول امرأة يقابلها إذا كانت حاجته إلى الإشباع الجنى ملحة . ولكنه عادة - إذا أتاحت له الفرصة للاختيار - سيختار على أساس من الذوق ، ومن بعض المستويات الجمالية والروحية المعينة ، وفى بعض الحالات قد تبدو مستوياته هابطة فى نظر غيره ، ولكن تظل هناك على الأقل درجة من الاختيار التى تتضمن بدورها استبعاد قيم أخرى ، وهذا المستوى يعلو كثيراً على المستوى الحيوانى ، ولو أننا أنكرنا على الإنسان هذا الحق فى الاختيار لرجعنا به إلى الأصل البدائى الذى زحف منه صاعداً بغاية البطء وبكل الألم والمعاناة خلال الأجيال .

ومن جهة أخرى إذا اعترفنا بأمانة الرجال والنساء يمارسون العلاقات الجنسية لما فيها من لذة وإشباع ورضا لهم جسمياً وانفعالياً وروحياً - فإننا نرفعها بذلك إلى مكانها الصحيح . وفى هذا المعنى قال فردريك كويتز مدير مركز التدريب الإكلينكى لطلبة اللاهوت فى الولايات المتحدة وكندا : «الجنس هبة من الله ، وكما أنه بداخل كل الناس - القدرة على العمل البناء التلقائى وعلى الترفيه والاستمتاع - فكذلك أيضاً لديه القدرة على النشاط الجنى . والدلائل تشير إلى أننا كلما ارتفعنا صعوداً فى مدارج الحضارة زادت قدرة الفرد أو الجماعة التى ينتمى إليها على إقامة هذه العلاقة الشخصية التى تسمى الحب . . فقد كانت لدى الخالق أغراض أخرى غير الإنجاب حين منح الجنس للإنسان» .

إن أى طبيب باطنى أو نفسى سيخبرك بأنه ليس هناك مقومونه للجهاز العصبى خير من اللقاء الجنى ، وأنه من أجل هذا السبب تعد العلاقات الجنسية ذات أهمية حيوية فى متوسط العمر . فإن المرأة فى تلك الفترة تكون قد أقبلت على مرحلة انقطاع الطمث حيث تنهى كل الجوانب الإنسانية للجنس ، ويصبح فى وسع الزوجين الاستمتاع بالجنس لغرض الترفيه

وحسب وبغير الانزعاج من احتمال حدوث حمل غير مرغوب فيه . والواقع أن دكتور ستوك يقرر مؤكداً أن « الإستمتاع الكامل بالحياة الجنسية لا يتيسر إلا في حالة عدم وجود الفلق من الحمل » .

ويتحدث الناس عن الحب الأفلاطوني الذي يعنى وجود رباط قوى من المودة بين اثنين من الناس ودون وجود أى قدر من الانجذاب الجنى والجسدى بينها . والواقع أن هذا التفكير لم يخطر لأفلاطون ببال ، أما ما وصفه في «ندوته» فهو التطور التدريجى خطوة خطوة من المستوى الجسمى الخالص إلى المستوى الروحى الخالص ؛ فإن الحب يبدأ برغبة جنسية نحو الشخص الآخر ، ثم يرقى ويتقدم من خلال مراحل مختلفة من المودة والإعجاب و(التفانى) نحو الشخص الآخر جسماً وعقلاً وروحاً ، وهو يمثل أقصى مراتب التحقيق والإعلاء والإثراء بطبيعة الرجل والمرأة كلها ، ولكنه بدأ بالجاذبية الجسمية ، وهذه كونت القاعدة العريضة الصلبة التى قام عليها بناء هرمى محلق شاهق ، وقته هى التفانى الروحى .

وحيث يحقق الإنسان الإشباع الروحى العميق من النشاط الجنى - فإنه يكون إذ ذاك فقط قد حقق لنفسه حياة حب غنية ومجزية .

٤ - الحب الروحى :

فى الواقع ليس هناك ما يمكن أن يسمى الحب الروحى الخالص إلا فى الدين ، فى كل علاقة حب عناصر من الاثنين ، ولكن المقدار الذى فى كل منها يختلف من إنسان إلى آخر . فهى يكن من شدة الدوافع الروحية وعظمتها فلا بد أن يكون لها تعبير خارجى ملموس ، حتى لو لم يتجاوز هذا التعبير مجرد الإمساك بيد المحبوب أو الوجود فى الغرفة نفسها معه . ويتضمن ما يعد بصفة عامة حباً روحياً الشعور (بالتفانى) العميق إزاء إنسان آخر دون أية رغبة أو حاجة لمظاهره الجسمية والجنسية . وربما قال بعض : إن هذا ليس حباً حقيقياً على الإطلاق ، ولكنه مجرد صداقة وحسب : والواقع أن الشيء الوحيد الذى يفصل بين الصداقة والحب هو الجنس ، هذا إلى أن الصداقة الحقيقية فى نواح مختلفة أشق فى الحفاظ عليها من علاقة الحب ؛ إذ إنها تحتاج إلى قدر متساو من الأمانة والإنصاف والضمم والتقدير والمراعاة المتبادلة على حين تعوزها فى الوقت نفسه جاذبية الجنس التى تساعد على ترابطها معاً ، وأعظم

وأبني أنواع الحب هو ما بنى منه على أساس متين من الصداقة .

هذا الاندماج بين الجانبين الروحي والجسمي مع غلبة الجانب الروحي باستمرار يؤدي إلى أسمى أنواع الحب وأكثرها إشباعاً . وإن عملية التطور للإنسان كلها من كائن ذى خلية واحدة في عصور ما قبل التاريخ إلى التكوين المعقد الدقيق والتنظيم الذي يكون الجسم البشري يشير إلى تحقيق أعلى مستوى من التكوين والإشباع الروحي . ومن الغريب أنه على الرغم من أن بعضاً يعدون الدافع الجنسي كأداة للخطيئة فإنه إذا أحسن استخدامه يصبح الغريزة الإنسانية الفريدة القادرة على تحويل الإنسان إلى مستوى أكثر نبلاً ورقة ونقاء . ونحن جميعاً قابلنا أناساً قد أخرجهم الحب من أنفسهم ، وخلق بهم إلى علوم لم يكونوا يحملون به ، ودفع بهم إلى آفاق سامية من العظمة والجمال . وهذا من نواح متعددة هو أروع جوانب الغريزة الجنسية ، إذ يمتزج وينصهر فيها الجانبان الجسمي والروحي معاً بحيث يصبح من المحتم أن يؤدي أحدهما إلى الآخر .

ولا يمكن أن تستمر أى علاقة من هذا النوع ما لم يكن هناك عنصر روحي قوى في تكوينها ، فإن هذا فقط هو ما يمكن أن يؤدي إلى رفقة دائمة تبقى طويلاً بعد أن تكون الجاذبية الجسمية قد ضمرت أو حتى اختفت كلية . وقد عبر زوج إحدى صديقاتي في عبارة موجزة عن هذا المعنى بمناسبة احتفالها بعيد زواجها الفضي ، وأذكر أنه قال يومئذ «لعروسه» كما كان يجب أن يسميها : «أتعلمين يا عزيزتي أني ظننت أني كنت أجلك حين تزوجتك ، ولكنني الآن فقط بدأت أدرك ما معنى أن يجب الإنسان !» .

٥ - الحب الواقعي :

على الرغم من أن الحب الروحي هو دون ريب أسمى وأجمل أنواع التعبير الجنسي - فإنه من العسير على كل فرد الوصول إليه ، وعلى معظمنا أن يقنع بالحب على مستوى أقل سمواً . ولهذا السبب فإنه من المهم تكوين اتجاه واقعي من الحب ، وهذا الاتجاه يبدو بغير حاجة إلى التعريف أو الوصف ، فهو يؤلف بين كل الاتجاهات الأخرى بدرجات مختلفة - الرومانسي والجسدي والإنجابي والروحي .

وكما أشرنا في بدء هذا الفصل هناك قدر معين من التداخل بينها ، والفرق بينها ينحصر في

مدى ما يوليه المرء من تأكيد لأى منها : فالاتجاه الرومانسى مثلاً يتضمن بلا شك عناصر جسمية وروحية قوية ، ولكنه فى المقام الأول ينظر إلى الحب من حيث إنه رفقة مثالية لروحين . كما أن الاتجاه الروحى يجوز أن يتضمن جوانب جسمية قوية .

وقد يكون الاتجاه الواقعى ، من بعض النواحي - أصعبها منالاً ، ولكنه بمجرد الوصول إليه أخلقها بتحقيق أعظم فرص السعادة على المدى الطويل ، وقد يحتاج الوصول إليه إلى قدر كبير من النضج ، وهذا النضج لا يمكن اكتسابه إلا بالحياة الغنية والخبرة الشخصية بالدنيا والناس . وهو عادة يتضمن من المعاناة والألم ما لا يرضى به معظمنا أو ما لا يطيقون احتماله ، وكما قال أفرستريت : « لا يكون الإنسان ناضجاً جنسياً حتى يقابل طبيعته الجنسية بدون إحساس بالذنب ، وحتى يدمج هذه الطبيعة فى خطة عقلية لحياته ، ويصبح قادراً على أن يجعل الخبرة الجنسية الأساس لعلاقة باقية ومتبادلة الإشباع وخلافة مع الجنس الآخر» . ولكن قبول المرء لطبيعته الجنسية وإدماجها فى «خطة عقلية لحياته» - يتضمن بدوره القدرة على النظر إلى الحب بعين مستنيرة وتنمية دراسته موضوعياً واستخدام العناصر التى فى كل اتجاه للحب بغية الوصول إلى صورة متزنة ومرضية ، ونحن نختلف جميعاً ، فكما أن احتياجاتنا وأذواقنا فى الطعام والشراب تختلف - فكذلك أيضاً تختلف احتياجاتنا وأذواقنا فى الحب : فبعضنا رومانسى ، وبعضنا مادى ، والإنسان الناضج يدرس نفسه بدقة ويقرر ما الذى يسعى إلى الحصول عليه فى الحب لأننا فى نهاية التحليل ، ما لم نشعر بأننا نأخذ من الحب كما نعطى ، فلن يكون الحب ، أى حب - مشعباً لنا .